

الوافي في الوفيات

كان المعتمد بن عباد من أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلاداً ويؤدي الضريبة للأذفونش فلما ملك طليطلة لم يقبل الضريبة طمعاً في أخذ بلاده وأرسل إليه بتهدهه ويأمره بالنزول عن الحصون التي معه ف ضرب المعتمد الرسول وقتل من كان معه من الفرنج وكان الأذفونش متوجها لحصار قرطبة فرجع إلى طليطلة فكتب المعتمد إلى ابن تاشفين صاحب مراكش يستنجد فحضر إلى سبتة وعبر بالعساكر إلى الجزيرة الخضراء وعبر آخرهم وهم عشرة آلاف فارس واجتمع بالمعتمد وتسامع به ملوك الأندلس فجاءوا إليه من كل جانب فكتب الأذفونش إلى ابن تاشفين كتاباً يتهدهه فيه وطوله فكتب يوسف بن تاشفين الجواب في ظهره : الذي يكون ستره ! . فلما وقف عليه ارتاع ثم إنه جاء والتقى الجيشان في مكان يقال له الزلاقة من بلاد بطليوس وتضافاً ونصر الإسلام وثبت المعتمد في ذلك اليوم وأصابه عدة جراحات في وجهه وبدنه وغنم المسلمون بلاد الفرنج وسلاحهم ورجع ابن تاشفين إلى بلاده ثم أنه عاد في العام الثاني وحاصر بعض الحصون وخرج إليه المعتمد وعاد ابن تاشفين إلى مراكش وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها وما بها من المباني والبساتين والمياه والمطاعم وغيرها مما لا يوجد ببلاد مراكش ولم يزل خواصه يغرونه على المعتمد ويوحشون ما بينهما بما ينقلونه عند ليأخذ هلم بلاد الأندلس فتغير عليه وقصده فلما انتهى إلى سبتة جهز إليه العساكر فحاصروه بإشبيلية حصاراً شديداً وقتلهم المعتمد قتالاً عظيماً فاستولى على الناس بالبلد الجزع فهربوا مها وألقوا نفوسهم في لنهر من شرفات السور ثم إن العسك هجم البلد وقبضوا على المعتمد وأهله وقيدوه من وقته وجعل مع أهله في مركب وحملوا إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأرسله إلى حصن اغمات واعتقله بها إلى أن مات ومن الغريب أنه نودي على جنازته الصلاة على الغريب وسيأتي إن شاء الله تعالى في ترجمة يوسف بن تاشفين طرف جيد من سبب محاصرة بن عباد وكيف تغير عليه ابن تاشفين فليطلب هناك فإنه أبسط من هذا وما جرى على أحد من الملوك ما جرى عليه وعلى أولاده لأنه بناته صرن يغزلن للناس بالكري وبعض أولاد أولاده وهو فخر الدولة يعمل أجيراً في دكان صايغ حتى قال أبو بكر ابن اللبانة الداني في ذلك من جملة قصيدة :

وعاد كونك في دكان قارعة ... من بعد ما كنت في قصر حكى إرما .

صرفت في آلة الصياغ أنملة ... لم تدر إلا الندى والسيف والقلم .

يد عهدتك للتقبيل تبسطها ... فأسقل الثريا أن تكون فما .

يا صايغاً كانت العليا تصاغ له ... حلياً وكان عليه الحلبي منتظماً .

للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى ... هول رأيك فيه تنفخ الفحما .
وددت إذ نظرت عيني إليك به ... لو أن عيني تشكو قبل ذاك عمى .
لح في العلى كوكباً إن لم تلح قمراً ... وقم بهاربوة إن لم تقم علماً .
واٍ لو أنصفتك الشهب لا نكسفت ... ولو وفي ذلك دمع الغيث لانسجما .
وتوفي المعتمد بسجن اغمات وهي خلف مراکش وبينها وبين الظلمات ثلث ليال سنة ثمان
وثمانين وأربع مائة ومن شعر المعتمد وهو في سجن أغمات : .
وعسى الليالي أن تمن بنظمنا عقداً كما كنا عليه وأجملاً .
ولربما نثر الجمان تعمداً ... ليعود أحسن في النظام وأكملاً .
ومن شعره وقد تألم يوماً من القيد وضيقه : .
تبدلت من ظل عز البنود ... بذل الحديد وثقل القيود .
وكان حديدي سناناً زليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديد .
وقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعض بساقي عض الأسود .
ودخل عليه بناتهن في يوم عيد وقد غزلت إحداهن غزلاً بالأجرة لصاحب الشركة الذي كان في
خدمة أبيها لما كان في سلطانه فرآهن في أطمارهن الرثة وحالهن السيئة فقال : .
فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا .
ترى بناتك في الأطمار جايعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا .
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا .
ورأي القيد يوماً في رجل ولده أبي هاشم وقد عض بساقيه فبكى وقال :